الوطن في الرواية الأمريكية العربية المعاصرة

(خارطة الوطن) لرندة جرار أنموذجا

إسرا أوزتراهان Esra Öztarhan

ترجمة: د.مديحة عتيق

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

جامعة سوق أهراس/ الجزائر

Madiha.atik@univ-soukahras.dz

تاريخ الإرسال: 2018/02/04

تاريخ القبول: 2018/05/17

الملخص:

تختلف الأعمال النّظرية سلبا أو إيجابا في تصوّراتها حول تجربة الاغتراب (Homelessness). يدافع بعض المنظّرين على فكرة أنّ غياب الوطن يسبّب قلقا واضطرابا مستمرّين، ويصدق هذا القول على نحو خاص على المهاجرين ذوي الهويّات الهجينة حيث لا يعلمون إلى أيّ الأوطان ينتمون، ورغم أنّ التجذّر (rootedness) والاغتراب يخلقان شعورا مزمنا بعدم الارتياح فإنّ هذا الشعور -حسب بعض المنظّرين الآخرين- يمكن أن يكون إيجابيا في بعض نواحيه لدى الأفراد.

تقتضي هذا الرّحيل نحو الأوطان وخارجها تطوّرا يمسّ ذوات المهاجرين كما أنّه يخلق فضاء للحرّية والتحوّل. تناقش الكاتبة الأمريكية العربية رندة جرّار مفهوم الوطن في روايتها (خارطة الوطن) الصادرة عام 2008. تقدّم بطلة الرواية بعدا جديدا يضيء النقاش المطروح أعلاه بتقديمها مفهومها الخاص عن الوطن، وذلك باعتبارها فردا هجينا يعيش بين أوطان وهويّات [متعدّدة]. ولقد تلمّست طريقها نحو الوطن من خلال عملية إدراك تشكّلت عبر ثلاث مراحل: كانت المرحلة الأولى سعيا لامتلاك وطن وذلك نتيجة شعورها بالقلق واللا انتماء، والمرحلة الثانية هي إدراك وتقبّل وجود ذاتها في المنطقة [المابينية] وبالتالي رضيت بأن تكون بلا وطن، وعبّرت المرحلة الثالثة عن احتفاءها بأن تكون بلا وطن محدّد. يظلّ مفهوم الوطن لدى بطلة جرّار فضفاضا، يتشكّل باعتباره سيرورة أكثر منه مكانا.

الكلمات المفتاحية: *الأدب الأمريكي العربي- رندة جرّار- خارطة الوطن- الشتات- الهويّة- الوطن.*

تحيل الكاتبة الأمريكية السورية مهجة كهف في قصيدتها (العبور هنالك) (The Passing There) إلى قصيدة روبرت فروست (Robert Frost) "الطريق التي لم تُسلك" (The Road Not Taken) تشير كهف إلى معاناة الهويّة المنشطرة، إلى ألم الشعور بعدم الانتماء إلى أيّ مكان. ولكنّها تقع في الـ "ما بين" بصفتها أمريكية عربية:

أمّي تعرف هذه الأغنية

كيف كنّا نجري

كي نعبر جدولا

يفصل بين عالمين

كلّ منهما يدّعي أحقّيته في الوجود

ويستحيل علينا أن ننحاز إلى أحدهما دون الآخر

والعبور هناك

يصنع كلّ الفرق (2006:n.p.)

يبدو فعل "قفز"(leap) كأنّه مأزق أبدي تعانيه الهويّات المركّبة، تبحث الشاعرة عن مكان تنتمي إليه، عن وطن تستشعر فيه بالأمان والرّاحة. في القصيدة يستحيل على الأمريكي العربي أن ينحاز إلى ثقافة دون أخرى كي ينتمي إليها.

هناك صلة قريبة بين هويّة المرء، والشعور بالانتماء، ومفهوم الوطن، خاصّة بالنسبة لذوي الهويّات المركّبة، فالانتماء والتجذّر سبيلان معتبران يربطان المرء بمحيطه، ولكن بالنسبة للأفراد الذين ليس لديهم وطن أو لديهم أكثر من وطن يصعب عليهم أن يجدوا حلّا كالذي تقترحه الشاعرة.

ستركّز هذه الورقة على الكاتبة الأمريكية العربية رندة جرّار، وستحاول أن تناقش مفهومها للوطن في روايتها (**خارطة الوطن**) الصادرة عام 2008، تقدّم بطلة الرواية بعدا جديدا يضيء النقاش المطروح أعلاه بتقديمها مفهومها الخاص عن الوطن، وذلك باعتبارها فردا هجينا يعيش بين أوطان وهويّات [متعدّدة]. ولقد تلمّست طريقها نحو الوطن من خلال عملية إدراك تشكّلت عبر ثلاث مراحل: كانت المرحلة الأولى سعيا لأن يكون لها وطن وذلك نتيجة شعورها بالقلق والـلا انتماء، والمرحلة الثانية هي إدراكها وتقبّل وجودها في المنطقة [المابينية] وبالتالي رضيت بأن تكون بلا وطن، وتعبّر المرحلة الثالثة عن احتفاءها بأنّها بلا وطن محدّد. يظلّ مفهوم الوطن لدى بطلة جرّار فضفاضا، يتشكّل باعتباره سيرورة أكثر منه مكانا.

هذه السيرورة هي تغيّر في إدراك الشتات من اعتباره تجربة سلبية إلى عدّه تجربة إيجابية. هناك مقاربتان أساسيتان في النظريات المتعلقة بوضعية شعوب الشتات من حيث الانتماء والانقلاع (rootlessness) فالتوجه الفكري الأوّل يطرح فكرة أنّ كون الفرد مهاجرا دون وطن يخلق لديه ضياعا وألما مستمرّين. ووفقا لهذه المجموعة من النظّريات، فالعيش بعيدا عن الوطن يشي دائما بدلالات سلبية، يحدّد ويليام سفران (William Safran) المعايير الأساسية التي تحكم مصطلح "الشتات"في كتابه (الشتات في المجتمعات الحديثة: أساطير الأرض الأمّ والعودة) (Diasporas in Modern Societies: Myths of Homeland and Return) (1991) يشير إلى ستّ خصائص تحدّد الملامح المشتركة في المجتمعات الشتاتيّة، وهي: تزحزحها من المركز إلى الحواف، وإنشاءها ذاكرة جماعية، وشعورها بالـلا انتماء أو بالأحرى شعورها بأنّه غير مرغوب فيها لدى البلد المضيف، رغبتها الجامحة في العودة إلى الأرض الأمّ المثالية، واعتقاد ها بأنّ العودة إلى الأرض الأمّ سيحقّق لها السلام والأمن

والرفاهية، وأخيرا علاقتها المتواصلة مع الوطن الأصلي وسكّانه (سفران: 1994، 84).

يعدّ مفهوم الاغتراب بالنسبة للمهاجرين والمنفيين/ والمقتلعين من أراضيهم العرقيين، وعابري الحدود والشتاتيين إحدى مشاكل الوجود الأساسية، وعليه، يعيش أمثال هؤلاء النّياس في جوّ من القلق واللا استقرار حيث لا يعلمون إلى أيّ الأوطان ينتمون، يؤكّد إيان شامبرز (Ian Chambers) بأنّ الهجرة هي حركة تكون فيها نقاط العبور ونقاط الوصول غير مؤكّدة، إنّها موقع التحوّل المستمرّ، والتبديل الدائم، دون أمل بالعودة إلى أرض الوطن"(1994،5)، وعليه، يتحدّث عن تشكيل هويّة باعتبارها "رحلة غير مكتملة، هويّة لا تستقرّ على حال، و اتّجاه غير نهائي"(شامبرز،1994،5)، يخلق هذا اللا استقرار قلقا لدى الأفراد المهاجرين، ويخلق –أضف إلى ذلك– حنينا لا ينضب أبدا نحو الوطن، وشوقا لبلوغه أينما وُجِد.

ووفقا لسارة أحمد، تؤدّي استحالة العودة إلى الوطن إلى شعور أبدي بالوجود "خارج المكان"(1999،343) كما يتوق هؤلاء الأفراد بشدّة إلى العودة إلى جذورهم، ومجرّد تذكّرهم للماضي، وتخيّلهم صورة عن أوطانهم يغدو امرا منغصا لهم ، وبما أنّ العودة مستحلية، فلا حلّ لهذا القلق، بل سيدمّر الإحساس بالفضاء الرّاهن الذي يحيون فيه. ووفقا لأحمد، فالهجرة هي عمّلية التحوّل إلى غريب عمّا كان يألفه في الوطن"(1999،343) الوطن هو أحيانا أرض موحشة، يوتوبيا، جغرافيا عائمة، حيث لا يمكن لأحد أن ينجح. يدعو منظّرون بلاد الشتات بالفضاءات غير الواقعية، وغير الموجودة.

يشير سلمان رشدي إلى ضياع تستشعره المنافي والمهاجرين نتيجة تجاربهم. يخلق هذا الضياع تصوّرات عن ديار متخيّلة. تشير إيزاد سيهان

(Azade Seyhan) إلى هذا الضياع في كتابها (الكتابة في بلاد المهجر) (*Writing outside the Nation*) فبالنسبة للناس الشتاتيين لا يهمّ إن كانوا قد استبعدوا طوعا أو قسرا، فهناك إرث ثقافي مشترك تركوه خلفهم، ممّا جعلهم يؤسسون مجتمعات متخيّلة، وفي تحليلها الأدبي للأدب الألماني التركي تدّعي بأنّه ليس ثمة مكان يمكن تحديده على الخارطة وطنا لهم وليس بوسعهم الإقرار بأنهم أتراك وهم يعيشون في ألمانيا أو ألمانا وهم يعيش في ألمانيا، فهم يسمون الذاكرة وطنا أي يختزلون مفهوم الوطن إلى ذاكرة ولغة (15،2001) وليس ثمة ما يسمونه وطنا ولذلك يتشبثون بالذكريات والتواريخ على أنها أوطان (18،2001)، وتدّعي أيضا بأنّ:

وتقود موجات الهجرة إلى ضياع الأوطان وما يربطنا بها والذاكرة. وحين نصحو على الواقع نجد أنفسنا أمام هوية ملطخة-بقايا لغة، ألسنه تتلعثم بلغتها- نصيب ضئيل من الثقافة. ومن نار الغربة هده، يتولّد الأدب في مناخ لغوي وثقافي مختلط متعدد المنابع (سايهان، 2001: 7)

ومع ذلك لا تزال تسمية الأفراد أو المجتمعات المنقسمة أو العرقية أو المهاجرة أو الشتاتية تفتقد إلى جملة من الفروق الدقيقة، حيث أنّهم يعيشون ما بين التواريخ والجغرافيات والممارسات الثقافية، وفقا لآزاد سيهان (9،2001) فالتعريفات المعمول بها لمصطلحات المنفيّ، أو الشتاتيّ، أو العرقيّ غير واضحة أحيانا، تفضّل سايهان بأن تدعوها بـ"المجتمعات المتعايشة مع السكان الأصليين" (10،2001) ووفقا لنظريّتها "هناك مجتمعات تقع داخل حدود إقليمية أو جنبا إلى جنب مواطني البلد المضيف، ولكنّها تظلّ بعيدة عنهم لسانيا وثقافيا، وفي بعض الأحيان، تظلّ غريبة عن الديار وعن البلد المضيف في آن واحد" (10،2001).

ووفقا للفريق الثاني من المنظّرين الذين لديهم تأويلات إيجابية للحالات الشتاتية، يضيف غياب الوطن –حقيقة أو مجازا– بعدا جديدا للأفراد الذين في الشتات، ومع أنّ التجذّر والاغتراب يخلقان شعورا مستمرا بالقلق فإنّ هذا الشعور يمكن أن يكون –في بعض نواحيه– إيجابيا للأفراد. فبالنسبة لهؤلاء المنظّرين، يعني الانتماء إلى وطن استقرارا مستمرّا دون حركيّة على الإطلاق، وعليه دون رغبة في التغيير، ويدّعي هؤلاء المنظّرون أنّه على نقيض ما هو معروف فإنّ الرحيل داخل الأوطان والثقافات وخارجها يساهم في تطوير الأفراد المهاجرين. يدوّن شامبرز: فحالة الهجرة الدائمة من وطن إلى آخر، بمعنى أنّ الانتقال، أو السّفر، أو تغيير الوطن يجعلك تشتمّ نسائم الحرّية، فأن تنتقل يعني دائما أن تتحوّل"(1994،3)

وبخلاف سايهان، فإنّه يعتبر فضاء التحوّل حالة فعّالة للتغيير، وليس موقعا للاغتراب (estrangement) والانحباس (.entrapment) يعلّق أيضا على الطابع الجوهراني (essentialized character) للوطن والانتماء لدى الأفراد الشتاتيين: "يعلم المنفيّ أن الدّيار هي دائما ظرفية، فالحدود والقضبان التي تطوّقنا في منطقة الأمان داخل الأرض الأليفة يمكنها أيضا أن تتحوّل إلى سجون" (شامبرز: 1994، 2).

تشير هذه النظريات المتمحورة حول المظاهر الإيجابية للشتات إلى تعدّد الديار وأهمّيتها في حيوات الأفراد الشتاتيين، تزعم سارة أحمد في مقالها المعنون بـ"البعد عن الوطن: سرديات الهجرة والاغتراب" بأنّ الوطن ليس فضاء محدّدا بل يمكن أن يكون أكثر من فضاء أوحد، وتزعم بأنّ الأفراد في المنفى يتصوّرن خطأ بأنّ الوطن شيء ثمين يحلمون به كما لو كان معشوقا يهيمون به.

ووفقا لها، فهذه الإدراكات والمشاعر الخاطئة عن الوطن تكون مقدّسة وشرط لا غنى عنه لكلّ الكائنات البشرية، وهي جميعها وجهات نظر جوهرانية

(essentialized points of view) (330:1993) وفي اللحظة التي يتخلّص فيها المهاجرون من هذه الروابط التي تجوهرهم (essentializes) سيتحررون كأفراد.

تستشهد سارة أحمد –علاوة على ذلك– بباحثين آخرين يعدّون هؤلاء الرعايا مهاجرين مجازيين وليس مهاجرين حقيقيين. توظّف أنيتا هولدمان غويا (Anita Haya Goldman) التهجير migrancy) على نحو مجازي في تعريفها الأشخاص الذين أُقصوا عن مجتمعهم بشكل أو بآخر. وعلى نحو مماثل، تدّعي روزي براديوتي (Rosi Bradiotti) بأنّ الاغتراب قد يكون خيارا لدى الأفراد الذين يقفون ضدّ التسميات (labels) والحدود والمواضعات (أحمد: 1999، 333-4) وعليه، فالحلم الأبدي ببلوغ وطن أوحد هو سوء إدراك.

تشير الكاتبة الأمريكية العربية ديانا أبو جابر أيضا لهذا الأمر في روايتها "لغة البقلاوة "نحن نترعرع في شرنقة ما نعرفه، ويتمثّل لديّ في انقطاع جذور عائلتي، وحدّت من نشاط والدي، بالتأكيد، أنا بدويّة، وكأيّ شخص سافر في قافلة صحراء، بدويّة، متمرّدة أنا، أحنّ وأتوق إلى كلّ مكان في كلّ بلد عشت فيه، بل إلى كلّ مكان عاش فيه أصدقائي، وعائلتي، وتحدّثوا عنه أيضا، لا أريد أبدا أن أترك أيّا من هذه الأماكن، أريد أن أصرخ عاليا، أن أحتجّ: لماذا يجب أن يكون هناك وطن واحد فقط (2005: 329-330) فأن يكون لك أكثر من وطن تنتمي إليه نتيجة هجرة طوعية قسرية هو أمر إيجابي للأفراد إذ يتحدّى مفهومَ الوطن الثابت أو الأحادي ومفهومَ "الأصل" الذي ننتمي إليه.

ورغم الدلالات السلبية لمفهوم الاغتراب الذي يُعرَّف بأنّه اللا استقرار مع حنين دائم للوطن وشعور مزمن بالقلق، تؤكّد أحمد بأنّه في بعض الأحيان يكون الانتماء إلى الوطن هو المصدر الفعلي للقلق لأنّه يربط المرء بأرض ثابتة، وهويّة

ثابتة دون تحفيز للتغيير والحركة، وفي هذه المرّة فوجود وطن ننتمي إليه يخلق حدودا، وعدم ارتياح، وعدم حركيّة، وهويّة ثابتة" (1999، 339) تعني الهجرة حركة، انتقالا، عبور حدود، فهي" بالتالي حريّة، لا ضبابية"(1999، 331)

(خارطة الوطن) لرندة جرّار هي قصّة ناشئة عن فتاة لديها والدة مصرية إغريقية، ووالد فلسطيني، كتبت الرواية في شكل مذكّرات حيث تروي الفتاة قصّة طفولتها في الكويت، وسنوات مراهقتها في مصر، حيث فرّت مع أسرتها من الغزو العراقي، وانتقلت عائلتها لاحقا إلى تكساس، وتنتهي الرواية حين تقرّر البطلة الانتقال إلى بوسطن من أجل دراستها الجامعيّة لبناء مستقبلها بعيدا عن أيّ فرد وأيّ مكان كان يوما وطنها.

تسرد الرواية قصّة فتاة عابرة للحدود ومتعدّدة العرقيات نتيجة انتقالها بين بلدان وثقافات، وعليه لم تجد في أيّ خريطة مكانا تدعوه وطنها، لأنّه لا يوجد وطن تعود إليه، تسبّب هذه الوضعية الغامضة الناجمة عن الرحيل المستمرّ شعورا بعدم الانتماء، ولكنّ بطلة جرّار تخلق [في الأخير] "وطنا" داخل ذاتها -بعيدا عن الثقافات والبلدان وحتى عائلتها التي تطوّقها،- من خلال إعادة تشكيل أرض وطن واسعة ومتحرّرة في نهاية فترة مراهقتها كنتيجة لسيرورة.

تبدأ المرحلة الأولى لعمليّة اكتشافها وطنها من خلال صراعها ضدّ التداعيات السلبية للاغتراب كالقلق والغموض، ويمكن أن تُقرَأ [هذه المرحلة] على أنّها صراع البطلة الأبدي للعثور على مكانها ووطنها ضمن الثقافات العربية والأمريكية، وهذا موتيف مشترك في أدب الكتّاب الإثنيين بغضّ النّظر عن أصولهم.

في الأدب الأمريكي العربي-على وجه خاص- تكون تيمات على غرار الاغتراب، والفضاءات الثالثة، وقصص تشكيل هويّة لا تنتهي أبدا هي الموضوعات الطاغية، فعلى سبيل المثال تقترح الشاعرة الأمريكية الفلسطينية

نعومي شهاب ناي فكرة مفادها أن تكون أمريكيا عربيا هو سيرورة اكتشاف (discovered in process) من خلال إضفاء معنى للتجارب البائسة، والسياقات الثقافية، وتغذية الشرارات المتولّدة من احتكاكها"(مجاج: 6،2008).

يدرك مفهومُ الهويّة المتحوّلة صيرورةَ الرعايا المهاجرة على أنّها عمليّة مستمرّة، لا تنتهي أبدا، وعليه فمادام مفهوم "الهويّة" و"الانتماء" يتّصلان اتّصالا وثيقا بمفهوم "الوطن"، فمفهوم "الوطن الأمّ" هو أيضا سيرورة. فهذا الشعور باللا انتماء هو الشعور الطاغي حيث ينتاب نضالي شعورا متناميا بأنّها منشطرة:

"جوزا سفري الصغير الذي يبدو لا شيء مثل جواز سفر أمي الأخضر والمتوسّط، ومثل جواز سفر أبي البني –أقول– كان أمريكيا، لم يكن عليّ أن أقف بعد في خطّ مختلف في المطار، ولكن سرعان ما كان عليّ أن أفعل ذلك، وكان على أمّي أن تقف في خطّ مختلف، وكان على أبي أن يقف في خطّ آخر مختلف، وهذا ما جعلني أعتقد أنّ العالم يرغب في تفريق عائلتي، وهذا ما جعلني أندفع نحوهم أكثر فأكثر" (جرّار: 2008، 9) لقد عانوا في الكويت سنوات عديدة، حيث لم يشعر أيّ فرد من العائلة بالانتماء، ثمّ سافروا إلى تكساس حيث ظلّ الشعور باللا انتماء لصيقا لدى كلّ أفراد العائلة، ولكنّه كان أقسى –على نحو خاص– على فتاة تحاول أن تجد وطنا تشعر فيه بالانتماء، وحين انتقلوا إلى مصر في فترة مراهقتها، قريبا من منزل جدّتها كان الشعور باللا انتماء هو نفسه.

"كان هذا بيتنا الآن، بيتنا القديم ذهب، ذرفت دموعا غزيرة" (جرّار: 2008، 162) في المدرسة كان الأطفال يسخرون منها، وسألوها عن جنسيتها، كان الحزن يملا نصف كيانها ويملأ نصفها الآخر ضياع هويتها. (167،2008) "لم أخبرهم بأنّ قلبي منفطر، لم أخبرهم بأنّني أشعر دائما كما لو أنّني تركت شيئا

مـا خلفـي في الـوطن إلى أن أدركـت بأنّ مـا تركتـه خلفـي كـان الـوطن نفسه"(2008،166).

وبعد تجربتها في مصر اضطرّت إلى الانتقال للمرّة الثالثة، وهذه المرّة كانت الوجهة أمريكا، كانت متعبة، وغير سعيدة لاضطرارها التأقلم مع أمكنة جديدة طيلة حياتها، قاومت بقولها: لا أستطيع الرّحيل إلى أمريكا، ليس لديّ ما أرتديه، شعري بشع، لم أرد أن أخبرها الحقيقة، لا أريد أن أرحل ثانية، وأن أفقد ذلك الوطن مرّة أخرى، وأن أبدأ من جديد مرّة أخرى"(2008،207) والبحث عن الوطن هو نتيجة طبيعية وهو بمثابة حل لعالم محير متداخل الملامح والرؤى ملفوف بالضياع تأتّى من افتقاد وطن تنتمي إليه، وعلاوة على هذا، فقد زادت هذه الحلقة الوحشيّة من الهويّات المنشطرة، والديّار المتحوّلة من تعاستها .

والمرحلة الثانية من عملية اكتشافها وطن هي مرحلة تقبّلها حقيقة وجودها في منطقة الما بين والاغتراب، (خارطة الوطن) هي العيش وسط نظم قيمية (value systems)وثقافات متعدّدة، فقد شعرت نضالي [بطلة الرواية] بذلك طيلة حياتها، وبدل أن تقاوم هذا الأمر تقرّر أن تتعايش مع هذه الظروف غير قابلة للتغيير.

جدّة نضالي يونانية، ووالدتها مصرية، ووالدها فلسطيني، وهي تشبّه نفسها بعرائس ماتروشكا (matrushka) الروسية، أصغر قطعة في المركز نفسه:

"فذات البطن الخاوي تلتحق بأمّها، تلك التي تجلس بدورها في حضن والدتها، وهكذا دواليك، علمت بأنّ أكبر أمّ في الخارج كانت يونانية، ولكن ذلك لا يعني أنّني يونانية، لاحظت أنّ كل الدمى مشقوقة في وسطها ماعدا أنا، ومع ذلك كنت بهويتين، كنت مصرية وفلسطينية، كنت يونانية وأمريكية"(2008،8).

أصبحت نضالي أكثر نضجا حين أدركت بأنّ بحثها عن وطن [قارّ] أمر غير مجد، ومع ذلك لم تستطع التخلّص من الشعور بالقلق، في الفصل (14) المعنون بـ " أتت كتكوتة في الرابعة عشر من عمرها، انتقلت لتوّها إلى تكساس" (2008، 232) غيّرت جرّار ضمير السارد من ضمير المتكلّم (أنا) إلى ضمير المخاطب(أنت)، وقد علّقت على ذلك في حوار لها بخصوص الرواية قائلة: "هذا حتما عمل واع من جانبي، كي أجعل القارئ يستشعر معي معنى أن تكون مهاجرا" (اليمن، 2009،) تقول: "إنّ هويّتها تجزّأت حين انتقلت إلى أمريكا، وعليه أرادت من القارئ أن يستشعر وطأة الإحساس المرهق حين ينتقل السرد إلى ما لم يتعوّده على امتداد الكتاب".

فمفهوم الوطن كشيء يستحيل العودة إليه شبيه بنظرية سارة أحمد حول الوطن، سجّلت أحمد بأنّ النصوص السردية التي تحدّثت عن مغادرة الوطن تنتج أوطانا كثيرة وعليه لا وطنا على الإطلاق (1999، 330) وعلى نحو مماثل، تُرِكت نضالي بسفرها إلى مناطق وثقافات دون وطن تنتمي إليه، وبدأت تصنّف نفسها على أنّها في (الما بين)، وعلى غرار نظريات الشتّات تناضل بطلة جرّار لتقرّر أين يقع الوطن، في الواقع لديها عدّة أوطان تنتمي إليها، فخلال فترة مراهقتها القصيرة عبرت التخوم مرّات عدّة.

كان الحلّ بالنسبة إلى أبيها هو اختلاق أرض وطن متخيّلة:"شعوبنا حملت أوطانها في أرواحها، يقول والدها، يمكنك أن تذهبي أينما شئت، ولكن عليك أن تودعيه دائما في قلبك" (جرّار: 69،2008) كان من العسير على نضالي أوّل الأمر أن تستوعب مفهوم والدها للوطن، فلديها في ذهنها مفهوم ماديّ جدا للوطن، فهي تعتقد –مثلا– بأنّه "من الصعب على والده أن يحمل كلّ ما يتذكّره عن فلسطين في روحه وجسده، "هذا شيء يثقل حملُه، لقد زرت أرض الوطن ذات مرّة، لاحظت أنّ هناك الكثير من العشب، وهناك صخور

وجبال كثيرة، وآلاف أشجار الزيتون والحمير" (2008، 9)، ومع ذلك فمادامت العودة إلى الوطن مستحيلة، سيكون الحلّ لديها هو أن تحلم مثل والدها بوطن مثاليّ.

في (خرائط الشتات) يناقش براه فكرة أنّ هناك أساسا نوعين من الشتات: نوع يرى الوطن مكانا مثيرا للرغبة، وهذا المفهوم لأرض الوطن يجعله مكان اللا عودة حتى لو عاد الأفراد حقيقة هناك، والنوع الثاني من الشتات هو ذلك الحنين إلى الوطن هو الشوق إلى تجارب حيّة، تكون أكثر صلابة، فالأصوات، والروائح، والمشاعر، والتجارب، والآلام، وللذّات، تُستذكَر من قبل الذات المشتاقة للعودة إلى الوطن (1996- 188-9) يوجد هذا النوعان من الشتات في رواية جرّار.

يسبب الإحساس بوطأة المجهول الحزنَ للبطلة أكثر مما يسبّبه بعدها -حاليا- عن كلّ ما كان أليفا لديها، تقول: "أتساءل بشأن المستقبل، لا أريد شيئا أكثر من أن أعرف ماذا سيحدث لنا، ماذا سيحدث لي" (2008، 180) فإحساسها بأنّها بعيدة عن وطنها يعني افتقادها أشياءها الخاصّة (السيريو القديم، السرير، البيانو، البرغر، الزعتر، الخليج، الأصدقاء، المدرسة) ولكنّها تعلم أنّها لا تستطيع العودة إلى نفس الحياة حتى لو تحرّر الكويت (2008، 178)" فهذا الشعور النوستالجي إزاء الوطن المتجسّد عبر المكنة، والأصوات، والروائح، والأذواق هو خيالي ويوتوبيّ.

في مثال آخر، أخبرها والداها أنّهما سيشتريان بيتا خاصا بهم، لم تشعر مطلقا بالسعادة، حتّى "وإن قفزت قدماي، وابتسمت عيناي، فقد انقبض قلبي حين تساءلت: كم من الوقت سيبقى هذا المنزل ملكنا ؟ كم من الوقت سيبقى هذا المنزل؟ (2008، 279) "فقدت مئات الأشياء في المنزل/ الوطن، والأمر

الأكثر إيلاما هو أنّني بدأت أنسى ما هو الوطن، وأين يوجد (2008، 1-220) "اختلط لديها -إذن- مفهوم وطن حقيقي مليء بالأشياء المادّية ستفقدها مع مفهوم الوطن، كمكان غير موجود، فتقبّلها فكرة أنّ الوطن مكان يستحيل العودة إليه أشعرها بالرّاحة خاصة أنّها مهاجرة يافعة.

والمرحلة الثانية -إذن- هي تقبّل مفهوم سلس للوطن، فلا هو مكان حقيقي، ولا هو مكان متخيّل، في (الأدب الأمريكي العربي: أصوله وتطوّراته) تحلّل ليزا سهير مجاج الموضوعات والمفاهيم الرئيسة في الأدب الأمريكي العربي، وفي تحليلها روايتي ديانا أبو جابر (الهلال) و(الجاز العربي) تخلص مجاج إلى أنّ كلتا الروايتين تحتوي على عناصر الإزاحة/الاقتلاع (dislocation) والاغتراب، وتزعم مجاج إلى أنّه في حالة الهويّات المركّبة كحالة الأمريكان العرب فإنّ تقبّل أحد طرفي هذه التركيبة [أمريكي/ عربي] مكانا أحاديا للانتماء ليس حلا. تقول: "ما هو مطلوب –بالأحرى- هو القدرة على الانتقال بسلاسة بين هذين العالمين" (مجاج: 2008، 10)، وبالنسبة إلى نضالي، أدّى القلق واللا استقرار وكونها بلا وطن تنتمي إليه إلى التغيّر والتحوّل، فإذا كان مفهوم الوطن هو سيرورة، فها هو القرار الحاسم ، إنّه تحدّ تخوضه كذات هجينة ضدّ الحياة المستقرّة، والهويّات الثابتة، فرضاها وتقبّلها فكرة أنّها تحمل الوطن في داخلها أرسى لها مكانة جديدة. في الرواية تتحدّى تقييدات التعريفات الجوهرانية لأرض الوطن، فالوطن مفهوم متغيّر، وبالتالي هو وضعية قابلة للتعديل، تجلب معها الحرية والسعادة.

"ذات مساء جلست على طاولة العشاء، ورسمت خارطة فلسطين معتمدة على ذاكرتي، أشرت إلى الحدود الغربية، وسألت بابا: هل هذه صحيحة؟ -قال:من يدري؟ -ماذا تقصد بقولك : من يدري؟ -أوه حبيبتي ! هذه الخريطة خاصّة بسنة معيّنة، والخرائط التي كانت موجودة سابقا تبدو مختلفة، والخرائط

التي ستأتي لاحقا ستكون مختلفة أكثر بكثير.- ماذا تقصد؟ أقصد ليست مقولة تخبرنا أين يبدأ الوطن وأين ينتهي، لاحظت أنّ عيني بابا اغرورقت بالدموع، أخذت الخريطة إلى غرفتي، ومسكت قلم الرصاص من الطرف الآخر، وجعلت طرف الممحاة على الصفحة، محوت الحدود الشرقية والحدود الغربية، محوت الحدود الجنوبية والشرقية، تفقّدت ما تبقّى: "صفحة فارغة"، حدّقت في بياض أطراف الصفحة وقتا طويلا جدا، اختلط بياض الصفحة مع بياض وريقاتي، "أنتِ هنا، فكّرتُ في ذلك وأنا أنظر إلى الصفحة، وإلى ما حولي، وعلى نحو غريب شعرت بأنّني حرّة" (جرّار: 2008-192-193).

مجازا، اسم البطلة هو تأنيث لكلمة النضال (نضال في اللغة العربية تعني الكفاح) حيث كانت تناضل في سبيل إيجاد خارطة وطنها الخاصة، وفي النهاية حين قرّرت التوقّيف عن البحث عن مكان تنتمي إليه شعرت بأنّها حرّة ومتمكّنة،كانت تناضل طيلة حياتها ضدّ المفاهيم الجوهرانيّة للعرقية والانتماء، فعلى سبيل المثال، تحدّد الأنماط الجاهزة عن العرب "ما عليها أن تكونه، أو لا تكونه، ما تستطيع فعله، وما لا تستطيع، كان الناس يفترضون أنّهم عرب، وعليه لا بدّ أن يكونوا فقراء"(2008-08) تزعم سارة أحمد بأنّ "البدو يقاومون اجتماعيا الصيغ المقننة للفكر والسلوك (1999: 334-337) فهذا الهيمان هو خيار، وتحرّر من المواضعات والحدود، وعليه فالمهاجرون ضدّ أيّ مفهوم ثابت للوطن والهويّة، "وبرفض الانتماء إلى مكان محدّد يصبح العالم وطن البدو" (1999: 337)

وفقا لبراه يقدّم مفهوم الشتات نقدا للخطابات التي تنظّر للأصول مادام الإنسان تحدوه الرغبة في البحث عن أيّ وطن وليس الرغبة في البحث عن وطنه الأم [بعينها]. نتاليا حنظل شاعرة وكاتبة مسرحية فلسطينية تكتب عن هويّتها المزدوجة في الولايات المتّحدة، وخلاصتها حول هذا الانقسام بين عالمين هي

-كما تقول- إيجادها وطن لها يوجد حيث تعيش، فتصوّرها عن الوطن هو عدم اختيار وطن أو ثقافة على حساب آخر، في قصيدتها (دبكة في نيويورك) (Debke in New York):

"أصل أرتدي الجينز وحذاء التنس، وأسير في بردواي

أعبر كولومبيا، وأقرأ سعيد، وتوين

أتلو أشعارا لابن عربي

وما بين ركوب الميترو والمكان الذي أدعوه الآن وطنا

أستمع إلى عبد الحليم ونينا سيمون

وفي وقت لاحق عن برهة مضت

لم أتحرّك خلاله قيد أنملة

لا يزال صوتي يتشظّى إلى قطع صغيرة

حين أقدّم نفسي إلى شخص جديد

وأتخيّل أنّني وجدت طريقي للوطن (نقلا عن مجاج: 2006-15).

ووفقا لها إذا كان الوطن في الأخير هو احتمال ضمن خيال، فإنّه مع ذلك فضاء داخل احتمالات لا نهائية" مجاج: (2006- 30).

(خارطة الوطن) لرندة جرّار هي رواية حول الوضعية الشتاتية للهائمين، مرّت نضال في بحثها عن الوطن بثلاث مراحل، في المرحلة الأولى، جعلت بطلة الرواية مسألة العيش مابين الأوطان وما بين الثقافات قضية إشكالية، وعليه كانت بلا وطن تنتمي إليه، وقد هيمنت وضعيتها الكائنة خارج المكان على

موضوع الرواية، حيث تكتب حول بحثها عن وطن تنتمي إليه، ومع ذلك، وحين عانت القلق لم تكن قادرة على إيجاد حلّ لمشكلتها.

في المرحلة الثانية، أقرّت بأنه رغم الدلالات السلبية للاغتراب فكونها بلا وطن لم يكن قدرا، واستطاعت تقبّل وجودها في الما بين، يبدو الأمر شبيها بأطروحات نظريات الشّتات التي تزعم أنّ الوطن هو المصدر الحقيقي للقلق لأنّه يربط الفرد بأرض ثابتة، وهويّة قارّة دون تحفيزه على التغيير والتحرّك.

تأتي المرحلة الثالثة ثمرة احتفائها بعدم انتمائها لأيّ وطن أو ثقافة أو هويّة، فالوطن الذي وجدته أخيرا هو ثمرة هذه السيرورة في استيعاب الشتات بوصفه قيمة إيجابية، ولم يعد بعد الآن قيمة سلبية.

هذه الرؤية هي وجهة النظر المتحرّرة لهذا الاغتراب والانخلاع هي ردّة فعل للهويات المركّبة التي لم يكن لها وطن أو ثقافة تنتمي إليه، أدركت نضالي أخيرا أن تكون بلا وطن تنتمي إليه سيساعدها على التحرّر والتحوّل.

المراجع:

Abu-Jaber, D. (2005). **The Language of Baklava**. Random House, New York.

Ahmed, S. (1999). "Home and Away: Narratives of Migration and Estrangement", **International Journal of Cultural Studies**, 2/3, 329-347.

Brah, A (1996). **Cartographies of Diaspora: Contesting Identities**. Routledge, London.

Chambers, I. (1994). **Migrancy, Culture, Identity**. Routledge, New York.

Jarrar, R. (2008). **A Map of Home**. Other Press, New York.

Seyhan, A. (2001). **Writing Outside The Nation**. Princeton University Press, New Jersey.

Majaj, L.S. (2008). "Arab-American Literature: Origins and Developments", **American Studies Journal** *52*, n.p. Retrieved Mar. 20, 2010, http://www.asjournal.org/archive/52/150.html.

---. (2006). "Supplies of Grace: The Poetry of Mohja Kahf", **Arteeast**. Retrieved Apr. 15, 2010, http:// www.arteeast.org/ artenews/artenews-articles2006/september06/artenews-mohja-kahf.html.

Safran, W. (1991). "Diasporas in Modern Societies: Myths of Homeland and Return", **Diaspora** 1/84-99.

Yaman, S. (2009). "Randa Jarrar Discusses Her Novel, *A Map of Home*", **Kabobfest**. etrieved Apr. 19, 2010, http://www.kabobfest.com/2009/09/interview-with-randa-jarrar-author-of-amap-of-home.html.

عنوان المقال الأصلي:

Esra Öztarhan : HOME IN CONTEMPORARY ARAB AMERICAN LITERATURE:RANDA JARAR'S A MAP OF HOME Pamukkale Üniversitesi Sosyal Bilimler Ensttüsü Dergisi Sayı 20, 2015, Sayfa 63-69**.**